السفارة العثمانية في روسيا وجهود يوسف رضا بك في افتتاحها عام 1856 من خلال الوثائق العثمانية

م.د. علي هاشم محمد
جامعة سامراء/ كلية التربية للعلوم الإنسانية
Ali.hashem@uosamarra.edu.iq

الملخص:

تعد السفارات من أبرز المؤسسات التي تعتمد عليها الدول في جمع المعلومات المتعلقة بالدول الأخرى في الجوانب الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية وغيرها، فمنذ القرن الخامس عشر أنشأت العديد من الدول سفارات دائمة لدى الدولة العثمانية ومع ذلك تأخرت الدولة العثمانية كثيرًا في فتح سفارات دائمة في الدول الأجنبية، إذ افتتحت أول سفارة دائمة لها في لندن عام 1793 بوساطة يوسف آغا أفندي، ثم في باريس عام 1797 بوساطة السيد علي أفندي، وفي برلين عبر علي عزيز أفندي، وفي فيينا بوساطة إبراهيم عفيف أفندي، إلا أن على الرغم من كون روسيا من القوى العظمى في تلك الحقبة، لم تُفتتح فيها سفارة دائمة إلا بعد إرسال سفير دائم إلى بريطانيا كانت هناك نية لإرسال سفير مماثل إلى روسيا، بل وتمت مناقشة الأمر مع رئيس الكتاب بشأن تعيين السيد نائلي أفندي، غير أن استعدادات روسيا العسكرية في تلك المدة دعت الدولة العثمانية إلى التراجع عن القرار، وبدلًا من ذلك تم التفكير في إرسال سفراء إلى دول أخرى لم تكن على علاقة جيدة بروسيا، مثل: السويد وبروسيا، إذ كانت السويد حليفًا مؤقتًا للدولة العثمانية خلال الحرب العثمانية – الروسية – النمساوية بين 1787 و1792.

الكلمات المفتاحية: الدولة العثمانية، روسيا، القيصر ألكسندر الثاني، محمد باشا، يوسف رضا بك، موسكو، سانت بطرسبورغ.

Al Malweah
for Archaeological
and Historical Studies

Vol 13, Issue 43, Feb 2026
P-ISSN: 2413-1326
E-ISSN: 2708-602X

The Ottoman Embassy in Russia and the Efforts of Yusuf Rıza Bey in Its Establishment in 1856 According to Ottoman Archival Documents

Dr. Ali Hashim Mohamed
University of Samarra / College of Education - Department of History

Abstract:

Embassies are among the most important institutions that states rely on to gather information about other countries in economic, political, military, social, cultural, and other fields. Since the fifteenth century, many states established permanent embassies in the Ottoman Empire. However, the Ottoman Empire was considerably delayed in opening its own permanent embassies abroad. Its first permanent embassy was opened in London in 1793 through Yusuf Ağa Efendi, followed by one in Paris in 1797 through Seyyid Ali Efendi, then in Berlin through Ali Aziz Efendi, and in Vienna through Ibrahim Afif Efendi.

Although Russia was one of the great powers of that era, a permanent embassy was not established there. After appointing a permanent ambassador to United Kingdom, there had been an intention to send a similar ambassador to Russia, and the matter was even discussed with the Reisülküttab (Chief of Scribes) regarding the appointment of Seyyid Naili Efendi. However, Russia's military preparations at the time led the Ottoman Empire to reconsider the decision. Instead, it was decided to send ambassadors to other states that did not maintain good relations with Russia, such as Sweden and Prussia. Sweden had been a temporary ally of the Ottoman Empire during the Ottoman–Russian–Austrian War.(1792–1787)

Keywords: The Ottoman Empire, Russia, Tsar Alexander II, Mehmed Pasha, Yusuf Rıza Bey, Moscow, Saint Petersburg.

المقدمة:

يتناول هذا البحث افتتاح الدولة العثمانية لسفارة دائمة في روسيا، و إلقاء الضوء على الموضوع استنادًا إلى وثائق الأرشيف العثماني، ومن الجدير بالذكر هنا أن الدولة العثمانية تأخرت في افتتاح سفارة دائمة في روسيا حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر (1856) الامر الذي طالما سعت اليه الدولة العثمانية لفتح سفارة في روسيا في السنوات التي بدأت فيها بفتح سفارات دائمة في أوروبا منذ عام 1793 وما بعدها، شكلت مراسم تتويج القيصر ألكسندر الثاني مناسبة لفتح سفارة عثمانية إذ تم إرسال وفد برئاسة محمد باشا بصفته "سفيرًا استثنائيًا مؤقتًا" لتمثيل الدولة العثمانية في ذلك الحفل، وتم تذكير محمد باشا بضرورة حضوره حفل التتويج في موسكو بطريقة تليق بمكانة الدولة العثمانية، وقد طُلب منه القيام بالتحضيرات اللازمة لفتح سفارة دائمة في بطرسبرغ، وصل الوفد العثماني إلى موسكو عبر أوديسا شارك في الحفل الى جانب الوفود الاوربية الاخرى ، وقرب نهاية حفل التتويج سمع وزير الخارجية الروسي غورتشاكوف من محمد باشا أن سفارة دائمة ستفتح في بطرسبرغ، وأعرب عن سعادته البالغة بذلك التطور، علم القيصر ألكسندر الثاني أن الدولة العثمانية ستفتح سفارة دائمة في بطرسبرغ، وأعرب عن رغبته في لقاء الوفد العثماني في بطرسبرغ دون أن يودعه، بعد ذلك تم العمل على توفير كل ما يلزم لإنشاء سفارة في بطرسبرغ، وبعد أن أنجز محمد باشا المهمة الموكلة إليه بنجاح، بقي سيرفر أفندي في منصب القائم بالأعمال، ولكن بعد مدة عاد سيرفر أفندي إلى اسطنبول ، وتم تعيين يوسف رضا بك سفيرًا في بطرسبرغ بعد أن شغل منصب سفير في أثينا، انتقل يوسف رضا بك من اسطنبول إلى فيينا ومن هناك إلى بطرسبرغ، ثم التقى بالقيصر الذي أعرب خلال المقابلة عن رضاه وتذمره في الوقت نفسه، أما يوسف رضا بك فنال رضا القيصر بخطابه، وقد انتهت مهمة يوسف رضا بك، الذي كان ينقل المعلومات إلى اسطنبول حول مختلف الموضوعات خلال مدة إقامته في بطرسبرغ في عام 1858 بعد أن قررت الدولة العثمانية إجراء تخفيضات في بعض السفارات، ومن بينها سفارة بطرسبرغ، وتحويلها إلى قنصلية.

اولًا: الوفد المرسل إلى مراسم تتويج القيصر ألكسندر الثاني وأنشطته

شهدت الدولة العثمانية عقب حرب القرم إعادة إحياء فكرة افتتاح سفارة دائمة لها في روسيا، وهي فكرة يعود طرحها الأول إلى نحو ستة عقود سابقة. وقد شكّل تتويج القيصر ألكسندر الثاني(Александр II) **(هو قيصر الإمبراطورية الروسية من عام 1855 حتى 1881، وينتمي إلى سلالة رومانوف الحاكمة، يُعد من أبرز القياصرة الإصلاحيين في التاريخ الروسي، ويُعرف بلقب "القيصر المحرر؛" نظرًا لإصداره**

مرسوم تحرير الأقنان عام 1861، الذي أنهى نظام القنانة الإقطاعي في روسيا خلال مدة حكمه، أطلق ألكسندر الثاني حزمة من الإصلاحات الشاملة طالت الجوانب القضائية، والتعليمية، والإدارية، والعسكرية، في محاولة لتحديث بنية الدولة الروسية وتعزيز كفاءتها بعد الهزيمة في حرب القرم (1853–1856) وشملت إصلاحاته إدخال نظام المحاكم الحديثة، وتوسيع التعليم، وتخفيف الرقابة، إلى جانب إعادة تنظيم الجيش والخدمة العسكرية، وعلى الرغم من طابعه الإصلاحي، واجه نظامه معارضة متزايدة من الحركات الثورية التي رأت في إصلاحاته بطئًا أو عدم كفاية، مما أدى إلى تصاعد موجات العنف السياسي. انتهت حياته باغتياله في سانت بطرسبرغ عام 1881 على يد جماعة "إرادة الشعب" الثورية. ((Lincoln,1990 p132-134، الذي اعتلى العرش الروسي في 2 آذار/مارس 1855 عقب وفاة القيصر نيكولا الأول (Николай I) في أثناء الحرب، عاملًا مباشرًا في دفع العثمانيين إلى تنفيذ هذا التوجه. فمع انتهاء الحرب وتحديد موعد مراسم التتويج، لم تكتفِ الدولة العثمانية بإيفاد ممثلين لحضور المناسبة، بل كلّفت بعض أعضاء الوفد بالاستعداد لاتخاذ الخطوات العملية اللازمة لافتتاح سفارة دائمة في العاصمة الروسية، وفي السياق ذاته عُيّن رئيس مجلس التنظيمات العليا، القبرصي محمد باشا **(وُلِد محمد باشا، ابن حسين أفندي القبرصي، عام 1813م في جزيرة قبرص. التحق بالـ (أندرون) القصر الداخلي للسلطان، حيث يُدرّب الموظفون رفيعو المستوى بمساعدة عمه محمد أمين أفندي، الذي كان يشغل منصب كتخُدَا خزانة السلطان (حاجب الخزانة السلطانية). وفي عام 1828م، أصبح نقيبًا (يوزباشي) في الكتيبة الثانية من اللواء الرابع التابع للحرس السلطاني (الحسّة). سافر إلى لندن مع نامق باشا، ثم إلى باريس حيث تعلّم اللغة الفرنسية بعد عودته إلى إسطنبول، واصل خدماته العسكرية، ثم عاد مرة أخرى إلى باريس لاستكمال تعليمه الذي كان قد انقطع، وبعد عودته تم تعيينه في مناصب إدارية، ففي عام 1848م، تم تعيينه في السفارة العثمانية بلندن. وبعد عودته إلى إسطنبول، تولّى منصب والي حلب في عام 1850م، ثم واصل مهامه العسكرية، إلى أن عُيّن واليًا على أدرنة عام 1853م.عقب حادثة الهجوم البحري على سنوب (1853)، تم تعيينه في عام 1854م بمنصب قائد الأسطول العثماني (كابتان دريّا). إلا أنه أُعفي من هذا المنصب بعد أربعة أشهر فقط. تولّى منصب الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) في المدة من 30 مايو إلى 23 نوفمبر 1854م. ثم عُيّن لاحقًا رئيسًا لمجلس التنظيمات (تنظيمات رياسيتي عاد وتولّى منصب الصدر الأعظم للمرة الثانية في عام 1859، وللمرة الثالثة في عام 1860 شغل بعد ذلك منصب والي أدرنة وعضوًا في المجلس الأعلى ، تُوفي في عام 1871م. (Süreyya, s. 300-301)**، رئيسًا للوفد بصفة "سفير فوق العادة مؤقت" لتمثيل الدولة العثمانية في مراسم التتويج، ونظرًا لقرب موعد الاحتفال، طُلب منه مغادرة إسطنبول على وجه السرعة، وقد أوكلت إليه مهمة إعادة تنشيط العلاقات الثنائية بين الدولتين، فضلًا عن ذلك، مُنح تفويضًا بالتفاوض إذا ما سمحت الظروف حول استعادة بعض الجزر الواقعة

في نهر الدانوب، بما في ذلك جزيرة الأفعى(Yılan Adası) ، إلى السيادة العثمانية (Unat, 1992.S.33) .

علاوة على ما سبق، وبالنظر إلى مشاركة وفود رسمية من دول متعددة في مراسم التتويج، جرى التشديد على ضرورة أن يمثّل محمد باشا الدولة العثمانية بما يليق بمكانتها السياسية وهيبتها الدولية، وقد أُبلغ بوجوب إظهار حضور رسمي يعبّر عن مكانة الدولة العثمانية بين القوى الكبرى في تلك المرحلة (Girgin, 1994, S. 52)، وطُلب منه اتخاذ الإجراءات التحضيرية اللازمة لافتتاح سفارة دائمة في مدينة سانت بطرسبورغ، بعدّ هذه الخطوة امتدادًا لمساعي تعزيز العلاقات الدبلوماسية مع روسيا ، وبما أن أعضاء الوفد المرافق لمحمد باشا كان من المقرر أن يكونوا من كبار الضباط والموظفين العثمانيين، فقد تمت مراسلة كلٍّ من وزير الحربية (السراسكير) **(هو لقب عثماني رفيع أُطلق على القائد الأعلى للجيش العثماني، وغالبًا ما كان يشغل أيضًا منصب وزير الحربية (أي: ما يعادل اليوم وزير الدفاع) نشأ هذا اللقب خلال القرن الثامن عشر، وأصبح رسميًا في أوائل القرن التاسع عشر، ولاسيما في حقبة الإصلاحات العثمانية (التنظيمات)، إذ تم فصل مهام القيادة العسكرية عن الصدر الأعظم، وتأسيس وزارة حربية مستقلة.**

كان السراسكير مسؤولًا عن:

- **تنظيم الجيش وتجنيده.**
- **التخطيط العسكري والإشراف على العمليات.**
- **إدارة الشؤون اللوجستية والمالية للقوات المسلحة.**
- **الحفاظ على النظام الداخلي في إسطنبول في بعض الحقب.**

وقد ارتبط هذا المنصب بتحولات الدولة نحو المركزية العسكرية والإدارية، ولاسيما في عهد السلطان محمود الثاني بعد إلغاء الإنكشارية عام 1826، إذ برز دور السراسكير كقائد أعلى للجيش النظامي الجديد. (Beydilli, 2009,36, pp. 285–288) والجهات المعنية في وزارة الخارجية الروسية لتنظيم المشاركة الرسمية، وبناءً على تلك المراسلات، جرى تعيين عدد من الشخصيات في مناصب محددة ضمن الوفد، وذلك على النحو الآتي:(Tuncer, 1991.S.29)

- **باسم بك**، عضو مجلس الولاية، مستشارٌ.
- **كنان بك** من كتّاب وزارة الخارجية، كاتب ثانٍ للسر.

- **سامي أفندي من قسم المحاضر بمجلس الولاية، والحاج رفعت بك من موظفي دائرة الترجمة، كتّاب مرافقين.**
- **صادق أفندي، من كتّاب السفارة العثمانية في فيينا باللغة الفرنسية، مترجم فرنسي.**
- **الدكتور يانجير بك، أحد أساتذة المدرسة الطبية السلطانية، طبيب رسمي للبعثة.**

أما من الجانب العسكري فتقرر أن يشارك كل من:(Beydilli, 2009, 288-294))

- **علي باشا** برتبة ميرليفا (عميد)
- **توفيق بك** برتبة ميرالاي (عقيد)
- **محمد أفندي** برتبة بينباشي (رائد)
- **شوكت بك**، دون تحديد رتبته.

وفي الجانب المالي خُصص لمحمد باشا مبلغ ألف كيس لتغطية نفقات السفر إضافة إلى راتب شهري قدره 20,000 فرنك، أي: ما يقرب من 100,000 قرش ، وتم ترتيب مخصصات وسلف مالية لبقية أعضاء الوفد تبعًا لرتبهم ووظائفهم(İpşirli, 1995, 3-15) ولضمان أن لا يقل مستوى الوفد العثماني عن وفود الدول الأخرى خلال "موكب التتويج"، حرصت البعثة على تأمين عربة رسمية على وفق النموذج الفرنسي المستعمل دبلوماسيًا، بل وحتى اعتماد الهيئة نفسها للخدم المرافقين، وقد كُلّفت السفارة العثمانية في باريس بتأمين تلك التجهيزات، وإلى جانب ذلك، مُنح محمد باشا مبلغ ألف كيس إضافي لتغطية نفقات الضيافات والحفلات الرسمية، بما في ذلك الولائم والمهرجانات، وبموازاة تلك الاستعدادات اعتُبر افتتاح سفارة دائمة في سانت بطرسبورغ من أبرز أولويات المهمة العثمانية وبعد تحديد هيكلية الطاقم الإداري والدبلوماسي، تقرر تعيين سيرفر أفندي كبير كتّاب السفارة في باريس، ليعمل كبير كتّاب مؤقت في السفارة الجديدة ثم قائمًا بالأعمال بعد مغادرة السفير، ورُقّي سيرفر أفندي من الرتبة الثانية إلى الدرجة الثانية من الرتبة الأولى، إضافة إلى ترقية الدكتور بانجيري إلى الرتبة الثالثة، وجرى تأكيد بقاء الضباط والموظفين الآخرين ممن تحتاجهم إدارة السفارة إلى جانب سيرفر أفندي؛ لضمان سير العمل الدبلوماسي بصورة منتظمة وفعّالة(İpşirli, 1995, 3-15).

بينما كانت الاستعدادات لا تزال جارية للمشاركة في مراسم تتويج القيصر، صدر أمر إلى السفارة العثمانية في باريس يقضي بشراء عربة مخصّصة للوزير محمد باشا لاستعمالها خلال الموكب الرسمي، وبناءً على ذلك، اشترت السفارة عربة كانت قد أُعدّت مسبقًا، ومن المهم الإشارة إلى أن العربة التي سيستعملها الوفد الفرنسي في الحفل كانت من الطراز الذي تجرّه ستة دواب، وهو ما دفع البعثة العثمانية إلى الحرص على الظهور بالمستوى البروتوكولي ذاته، ولهذا الغرض وبعد إجراء التعديلات اللازمة على العربة لجعلها

مشابهة للنموذج الفرنسي، بدأت مفاوضات مع الجنرال فيلوري كبير السُّيَّاس في قصر الإمبراطور نابليون الثالث لتأمين سائِقٍ مناسب يتولى قيادة العربة، وقد جرى تخصيص ستة جنود من البلاط الإمبراطوري الفرنسي بصفة مؤقتة للقيام بمهمة القيادة والمرافقة، وقد جُهزت ملابسهم إلى جانب ملابس ثلاثة آخرين بطريقة وُصفت بأنها "مثالية ومتكاملة"، ليصل عدد طاقم الخدمة المصاحب إلى تسعة أفراد، وبعد استكمال الترتيبات طُرحت مسألة نقل العربة إلى وجهتها المقررة لاستعمالها الرسمي في المراسم (Saner-Gönen, 1993, s. 135-136).

وبعد الانتهاء من التحضيرات المتعلقة بالعربة برزت الحاجة إلى نقلها إلى موسكو، الأمر الذي استلزم الحصول على دعم دبلوماسي لتسهيل الإجراءات، ولتحقيق ذلك صدر خطاب من السفير الروسي في باريس، البارون بيرادانوف، موجّه إلى وزير الخارجية الروسي يتضمن طلبًا بتيسير عملية نقل العربة وطاقم خدمها عبر الأراضي الروسية، وفي ضوء الخطاب(**Başbakanlık, nr. 133/6876-2**)، أُوكلت مهمة الإشراف على عملية النقل إلى إميل شودن، الموظف في السفارة العثمانية بباريس الذي تولّى متابعة التفاصيل اللوجستية اللازمة، وفي الوقت الذي كانت فيه السفارة العثمانية في باريس منشغلة بتأمين العربة والطاقم وسائر اللوازم البروتوكولية المطلوبة لحضور "مراسم التتويج"، كان محمد باشا (Başbakanlık, nr. 137/7081-11)، ومرافقوه قد وصلوا بالفعل إلى موسكو عبر أوديسا، وهناك جرى استئجار مسكن مؤقت للوفد، في حين باشر السيد مارك—وهو أحد المتعاملين المحليين—محاولات استئجار منزل مناسب في مدينة بطرسبرغ ليكون مقرًا مؤقتًا للسفارة، وقد بدأت التحضيرات العملية لتأمين المستلزمات الأساسية التي يحتاج إليها عمل البعثة الدبلوماسية.(Başbakanlık, nr. 136/7002-1)

وخلال المدة التي كانت تُستكمل فيها في باريس تجهيزات العربة وطاقم الخدم والمواد اللازمة لمراسم التتويج كان محمد باشا ووفده قد وصلوا إلى موسكو عبر أوديسا وهناك تم استئجار مسكن مؤقت لإقامتهم، فيما بدأ السيد مارك أحد المتعاملين المحليين البحث عن منزل مناسب للإيجار في سانت بطرسبرغ ليكون مقرًا مؤقتًا لعمل السفارة العثمانية، وفي الوقت ذاته، بُذلت جهود لتأمين الاحتياجات الأساسية للسفارة بما في ذلك أطقم المائدة ولوازم النوم ومستلزمات المطبخ، وقد جرى شراء أطقم من أدوات المائدة المصنوعة من الفضة والزجاج والبورسلان لتلبية احتياجات الاستعمال اليومي للوفد في موسكو، وللاستعمال لاحقًا في سانت بطرسبرغ، وأعرب محمد باشا عن رغبته في تجهيز مقر السفارة الجديد في سانت بطرسبرغ بمستوى من الفخامة يوازي ما تتمتع به السفارات الأوروبية الأخرى، مؤكّدًا أن السفارة العثمانية لا ينبغي أن تكون أقل شأنًا منها، ولهذا الغرض، طلب توفير طقم مائدة مماثل لتلك الأطقم الرفيعة المستعملة في السفارات الكبرى في باريس، موضحًا أن مثل هذه الأطقم لا تتوافر بسهولة في بطرسبرغ، وأن أفضل الخيارات يمكن الحصول عليها في باريس خلال مدة تتراوح بين خمسة إلى عشرة أيام، وبناءً عليه، طلب من السفارة العثمانية في

باريس إرسال طقم جاهز أو شراء واحد مناسب من المتاجر الراقية المتاحة هناك (Başbakanlık, nr. 137/7081-7).

ومن ناحية أخرى كان محمد باشا قد حصل عند مغادرته إسطنبول على مبلغ قدره 21,000 روبل لتغطية المصاريف الاستثنائية المتعلقة بإعداد مقر السفارة في سانت بطرسبرغ، غير أن هذا المبلغ تبيّن أنه غير كافٍ لتغطية تكاليف استئجار القصر المؤقت في موسكو، مما استدعى البحث عن حلول مالية إضافية؛ لضمان سير أعمال البعثة بصورة لائقة، وأثار الوضع استياءً ولاسيما مع استعداد سفراء الدول الأخرى لإقامة حفلات وعشاءات رسمية في موسكو وبطرسبرغ، وقد جعل من الضروري على الدولة العثمانية ألا تقل عنهم في إظهار هيبة الدولة وعظمتها أمام الآخرين، مما استدعى الحاجة إلى مزيد من التمويل، وكان طقم المائدة الذي طلب من سفارة باريس استعماله في الولائم الكبيرة غير متوافر في الوقت المناسب، فبدلًا منه تم إرسال طقم آخر متوافر في السفارة بباريس عبر السيد ميناس احد موظفي السفارة الذي وصل إلى موسكو في 22 سبتمبر/ايلول 1856 (Başbakanlık, nr. 137/7081-11)، وبعد وصول الطقم عبّر محمد باشا عن قلقه إزاء عدم تمكنه من إقامة حفلات رسمية، لكنه أشار إلى أنه يعتزم قريبًا تنظيم حفلات عشاء في السفارة العُليا لموظفي روسيا وسفراء الدول الأخرى، وبينما كانت البعثة العثمانية تسعى لتعويض تلك النواقص توجهت إلى القصر في موسكو لمقابلة القيصر ألكسندر الثاني، ثم دُعيت إلى الحفلات الرسمية والولائم التي أقامتها الحكومة الروسية بمناسبة مراسم التتويج، ومع ذلك خلال مدة إقامتهم في موسكو، لم تكن العربات الكبيرة التي جلبت من باريس للمراسم كافية للاستعمال اليومي، مما اضطرهم في البداية إلى شراء عربتين إضافيتين ثم بعد ذلك المزيد من العربات لتلبية الحاجة.(Başbakanlık, nr. 137/7081-4).

ثانيًا: استئجار مقر السفارة في بطرسبرغ

كُلِّف السيد مارك بالبحث عن مقر دائم للسفارة العثمانية في مدينة بطرسبرغ، وبعد العثور على منزل مناسب مبدئيًا أُرسل كبير كتّاب السفارة سرور أفندي لتفقّده، إلا أنه رفضه؛ نظرًا لضيق مساحته وعدم ملاءمته لاحتياجات العمل الدبلوماسي، وبعد ذلك تبيّن أن منزلًا تابعًا لمساعد حاكم أوديسا، الجنرال ستراغونوف، بات متاحًا للإيجار في بطرسبرغ مع ملحقاته، ونظرًا لموقعه ومستواه تقرر أن استئجاره سيضمن ألا تكون السفارة العثمانية أقل شأنًا من نظيراتها من السفارات الأجنبية، وبناءً على ذلك، جرى التواصل مع نجل الجنرال المقيم في موسكو للتفاوض بشأن شروط الإيجار.(Başbakanlık, nr. 137/7081-8)

طُلب في البداية مبلغ 15,000 روبل سنويًا مع تقديم خصم قدره 3,000 روبل في حال استئجاره لسنة واحدة بحيث يصبح المبلغ 12,000 روبل، أمّا إذا تم استئجاره لعدة سنوات فقد ينخفض الإيجار إلى 10,000 روبل بخصم يصل إلى 5,000 روبل، وبالنظر إلى ضيق الوقت وصعوبة العثور على منزل مماثل بسعر أقل جرى الاتفاق على استئجار المنزل، وقد مثّل ارتفاع تكاليف المعيشة في بطرسبرغ مقارنة بموسكو تحديًا إضافيًا، إذ أشير إلى أنّ الفرد يمكنه أن يعيش في بطرسبرغ بما يتراوح بين 4 و5 روبلات يوميًا مع التأكيد على أن الاحتياطات المالية للبعثة بدأت بالنفاد مما أدى إلى تفاقم الوضع المالي للسفارة، وتم رفع تقرير بهذا الشأن إلى إسطنبول، انتهت الاحتفالات الخاصة بتتويج القيصر في 29 سبتمبر/أيلول 1856 أمام المدرسة العسكرية في موسكو، إذ أُختتمت ببعض الألعاب النارية، وخلال الاحتفالات سأل وزير الخارجية الروسي الأمير ألكسندر ميخايلوفيتش غورشاكوف، محمد باشا عمّا إذا كان سيبقى في موسكو أو سينتقل إلى بطرسبرغ، ولاسيما أن ممثلي الدول الأخرى—مثل: إنجلترا، والنمسا، وسردينيا، وبلجيكا—كانوا يستعدون لتوديع القيصر والعودة إلى بلدانهم فأجابه محمد باشا قائلًا (Başbakanlık, nr. 138/7145–13) : ((**إن الدولة العلية تسعى إلى إقامة علاقات ودية وجيرة مباشرة مع الدولة الإمبراطورية، ولهذا السبب أُنشئت سفارة دائمة لدى الدولة الإمبراطورية، وبموجب مهمتي سأذهب إلى بطرسبرغ وأقيم هناك لفترة، إلى حين تعيين سفير دائم من طرف الدولة العلية، وسيُترك نائب ملائم من أعضاء السفارة إلى حين عودتي وقد تم بالفعل استئجار منزل حاكم أوديسا الجنرال ستراغونوف في بطرسبرغ، ولن يكون هناك وداع في هذا المكان**)).

أعرب الأمير غورشاكوف عن بالغ سروره بافتتاح السفارة العثمانية في موسكو، ولاسيما لقرب المبنى المستأجر من مقر إقامته، وخلال اللقاء الذي جمعه بمحمد باشا دار نقاش حول مسألة تسوية الحدود، إذ أوضح غورشاكوف أن فرنسا تميل إلى تأييد الموقف الروسي في هذه المسألة، إلا أنها لم تتمكن من الحصول على الأغلبية اللازمة داخل المحافل الدبلوماسية، وأضاف أنه في حال دعم الدولة العثمانية للمقترح الروسي، فسيُضمن تحقيق الأغلبية، مؤكدًا أن الحكومة الروسية ستكون ممتنّة لذلك، وستعمل في المقابل على تسهيل عدد من الشؤون المتعلقة بالدولة العثمانية، وفي أثناء استمرار الحديث، دخل القيصر إلى قاعة الاحتفال معلنًا بدء مراسم الاستقبال الرسمية (Başbakanlık, nr. 137/7081–6)، وبعد انتهاء المراسم بدأ سفراء الدول تباعًا بتوديع القيصر، وعندما توجه القيصر إلى محمد باشا سائلًا **(Başbakanlık, nr. 137/7083–1): ((هل سنودعكم هنا أيضًا؟ أجاب محمد باشا بأن إرادة السلطان السامية قضت بـ تعزيز العلاقات الودية والشفافة مع روسيا من خلال إنشاء سفارة عثمانية دائمة في الإمبراطورية الروسية وأنه بحكم مهمته الجديدة، سينتقل إلى بطرسبرغ فبادر القيصر بالقول سنلتقي في بطرسبرغ أيضًا))**. وقد أسهم هذا الموقف في تسهيل الأعمال اللاحقة للسفارة العثمانية وتعزيز مكانتها لدى السلطات الروسية ، وفي

ختام المراسم قُدمت إلى جميع السفراء ميداليات ذهبية تذكارية بالمناسبة، فيما أرسلت ميداليات فضية إلى أعضاء السفارة العثمانية، ومع عودة القيصر إلى بطرسبرغ وانتهاء احتفالات التتويج، اختُتمت المهمة المؤقتة لمحمد باشا بصفته سفيرًا، وغادر موسكو يوم الاثنين 5 تشرين الأول/أكتوبر متوجهًا إلى بطرسبرغ بالقطار لاستكمال الإجراءات المتعلقة بتأسيس السفارة الدائمة.(Başbakanlık, nr. 138/7145-1)

وخلال المدة نفسها، أقامت معظم الدول التي تمثّلها سفارات في موسكو حفلات رسمية وولائم دبلوماسية؛ غير أن الوفد العثماني لم يتمكن من تنظيم فعاليات مماثلة؛ لضيق الوقت وصعوبة تهيئة المنزل المستأجر بما يوازي ترتيبات الاحتفالات التي أقامها السفير الفرنسي الكونت موزي، وعلى الرغم من تلك الظروف نجح محمد باشا في تنظيم وليمتين تُعدّان من أبرز المناسبات الدبلوماسية التي أُقيمت في موسكو آنذاك، وبعد انتهاء تلك الأنشطة بدأ محمد باشا الاستعداد للعودة مصطحبًا معه الأثاث واللوازم التي أُرسلت إلى السفارة العثمانية الدائمة، وسلّم المسؤول المؤقت، القائم بالأعمال سيرفر أفندي قائمة مفصلة بالممتلكات الثابتة المخصّصة للسفارة، إضافة إلى السجل الفرنسي الذي يتضمن أوصاف الملابس التي تمت خياطتها لخدم السفارة؛ لضمان الاستمرارية الإدارية والتنظيمية(**اقترح محمد باشا قبل عودته إلى البلاد تخصيص رواتب معينة لبعض موظفي السفارة، نظرًا لارتفاع تكاليف المعيشة الباهظة في بطرسبرغ، التي كانت –مقارنة بسائر مدن أوروبا– تُظهر قدرًا كبيرًا من "البذخ والمظاهر الرسمية" أمام السفارات الأجنبية، مما كان يُسبب ضيقًا للعاملين في السفارة العثمانية هناك، فقد اقترح منح: مبلغ 250 روبل لوظيفة القائم بالأعمال، ومبلغ 200 روبل للسيد كنعان بك، مقابل 800 فرنك، ومبلغ 150 روبل للسيد رفعت أفندي، مقابل 600 فرنك، وذلك كرواتب لهم لتخفيف الأعباء المالية التي يتحملونها. (Vekayi, 1857, s. 4)**)

وبعد مباشرة سيرفر أفندي مهامه قائمًا بالأعمال أرسل تقريرًا إلى إسطنبول أشار فيه إلى أن مراسم تعميد ابن القيصر قد أُقيمت في القصر الإمبراطوري، ودُعي إليها السفراء المعتمدون في موسكو، وأوضح أنه –خلافًا للمناسبات السابقة– لم يُدعَ الممثل العثماني إلى الاحتفالية بسبب الاختلاف الديني، وهو أمر لم يكن معتادًا في البروتوكول الروسي تجاه البعثة العثمانية ، وتضمّنت رسالة سيرفر أفندي كذلك معلومات سياسية مهمة، إذ ذكر أن القيصر يعتزم القيام بجولة في عدد من دول أوروبا، إلا أن ظروف حمل الإمبراطورة حالت دون إتمام ذلك في الموعد الأول وبعد ولادتها، أُعلن رسميًا استئناف خطط الرحلة التي تقرر أن تبدأ في 11تموز/يوليو 1856، على أن يرافق القيصر كلًا من وزير الخارجية الأمير كونت غورشاكوف، وكونت إيلدربيرغ أحد كبار مسؤولي وزارة الداخلية، وأشار سيرفر أفندي في الوثيقة نفسها إلى المفاوضات الجارية بين السفير الفرنسي والحكومة الروسية بشأن إعادة تنظيم الاتفاقية التجارية الثنائية، وقد توصّل الطرفان إلى اتفاق عام، إلا أن المصادقة الرسمية على النص لم تتم بعد دون أن تتضح الأسباب الحقيقية لذلك، وأضاف أن بعض السفراء يرون أن الاتفاقية المقترحة ستمنح التجار الفرنسيين امتيازات واسعة في

السوق الروسية، في حين بدأت بريطانيا بدورها في اتخاذ خطوات تهدف إلى تنظيم علاقاتها التجارية مع روسيا على وفق المعايير الجديدة التي ستفرضها الاتفاقية المرتقبة (Başbakanlık, nr. 138/7145-12).

ومن الملاحظ أن القائم بالأعمال العثماني سيرفر أفندي لم يُوصِ حكومته بدعم الاتفاقيات التجارية التي كانت فرنسا وبريطانيا تسعيان إلى إبرامها مع روسيا في تلك المدة، وهو ما يشير إلى حذَر دبلوماسي وتقدير دقيق لموازين القوى، ولاسيما بعد انتهاء حرب القرم وما تبعها من إعادة ترتيب للعلاقات الأوروبية ، وفي هذا السياق قام السفير النمساوي في بطرسبرغ، إسترهازي(Esterházy) بزيارة السفارة العثمانية قبل مغادرته المؤقتة إلى فيينا، إذ التقى سيرفر أفندي وأطلعه على التطورات التي رافقت لقاءه الوداعي مع القيصر الروسي ووزير الخارجية غورشاكوف (Горчаков) ، وقد أكد السفير النمساوي أن كليهما استقبله بحفاوة بالغة، وهي إشارة وصفها بأنها ذات دلالة على تغيير ملموس في طبيعة العلاقات الثنائية، وفي تعليقه على هذا التطور في أثناء انتقاله إلى مقر الحكومة أوضح إسترهازي أن العداوة التقليدية بين روسيا والنمسا بدأت بالانحسار، وأن مرحلة جديدة من العلاقات وإن لم تبلغ مستوى الصداقة الكاملة بعد، إلا أنها تسير باتجاه واضح نحو التهدئة وتحسّن الأجواء بين الطرفين، ولفت إلى أن الوزراء والموظفين الروس الذين كانوا يعبّرون سابقًا عن تذمّرهم من سياسات النمسا سواء خلال حرب القرم أو بعدها، بدأوا يظهرون تغيرًا ملحوظًا في مواقفهم، الأمر الذي يُفسَّر على أنه انعكاس لتحولات دبلوماسية أوسع في بنية العلاقات الأوروبية خلال تلك المرحلة.(Başbakanlık, nr. 138/7145-12).

ثالثًا: سفارة يوسف رضا باشا في بطرسبرغ:

نتيجة لعودة سيرفر أفندي إلى إسطنبول بسبب زواجه من ابنة خليل باشا رأت الدولة العثمانية ضرورة تعيين سفير دائم في بطرسبرغ بدلًا منه؛ لضمان استمرار العمل الدبلوماسي دون انقطاع، وقد وقع الاختيار على رضا بك أفندي **(المعروف بلقبه "السفير الصغير" (Sefir-i Sagir)، وُلد عام 1826 ميلاديًا، وهو ابن الحاج دستان بك، بدأ حياته المهنية في الجهاز الإداري للدولة العثمانية عام 1840، إذ التحق بديوان المكاتبات برئاسة الصدارة العظمى كملازم، ثم انتقل إلى غرفة الترجمة، ليبدأ مسيرته الدبلوماسية المهمة، شغل عدة مناصب ابرزها: عُيّن عام 1848كبير كُتّاب في السفارة العثمانية بلندن، وفي عام 1852 أصبح مدير قلم التحريرات الأجنبية (Tahrirât-ı Ecnebiye Kalemi Müdürü) ثم عُيّن مستشارًا في سفارة باريس، وشارك في مؤتمر فيينا عام 1854 م، وبعدها عمل في سفارة أثينا، ثم في عام**

1857 في سفارة بطرسبرغ في عام 1855–1856 . (Kuneralp 1999, s. 126))، الذي كان قد شغل سابقًا منصب سفير في أثينا، وعمل عضوًا في لجنة التفتيش في الجيش الأمر الذي أكسبه خبرة إدارية وعسكرية تؤهله لإدارة شؤون السفارة في العاصمة الروسية ، وبعد أن وصلت إلى إسطنبول أنباء تُفيد برضا الحكومة الروسية عن ذلك التعيين صدر قرار منح رضا بك لقب السفير المتوسط، وجرى رفع رتبته من الدرجة الثانية العليا إلى الدرجة العليا، وعلى ضوء توافر الظروف المناسبة لإيفاده رأت الدولة أن من الملائم إرساله إلى بطرسبرغ في أسرع وقت ممكن، غير أن السلطات العثمانية أخذت بعين الاعتبار بُعد المسافة وارتفاع تكاليف المعيشة في روسيا، فقررت زيادة مخصصات السفير بما يتناسب مع متطلبات منصبه، وبما أن راتب سيرفر أفندي البالغ 250,000 قرش بدل مصاريف و2,500 روبل كراتب لوظيفة مساعد القنصل كان يُعد منخفضًا فقد تقرر رفع راتب السفير الجديد بمقدار 1,500 روبل ليصبح 4,000روبل شهريًا . (Başbakanlık, nr. 138/7145-12)

وفي إطار تنظيم شؤون السفارة وترسيخ بنيتها الإدارية، تقرر تعيين:

1. عريف أفندي من موظفي مجلس الشورى كاتم سرّ أول(منصب إداري سياسي رفيع المستوى، كبير يطّلع على أدق شؤون الدولة وأسرار السلطان، ويكون مسؤولًا عن تحرير الرسائل الحساسة، وصياغة الأوامر السلطانية، ومرافقة السلطان في تنقلاته أحيانًا، ابرز مهامه كتابة الرسائل والمراسلات السرية ولاسيما الموجهة إلى السفراء أو الولاة أو الدول الأجنبية بما في ذلك المراسلات الدبلوماسية أو التقارير الأمنية و تسجيل المحاضر أو تقديم التقارير و حفظ الوثائق السرية. (Ansiklopedisi, 2009, s 116–118).
2. مصطفى شوقت بك من موظفي مكتب الترجمة كاتب سرّ ثانٍ.
3. إيفانجولينو كاتبًا للقنصلية.
4. النقيب قدري بك والملازم بهجت بك في منصب الملحقين العسكريين.

غادر رضا بك ومرافقوه إسطنبول يوم الأربعاء الموافق 16تموز/يوليو، ووصلوا إلى فيينا يوم السبت 27من الشهر ذاته، وخلال إقامتهم القصيرة هناك دعاهم وزير الخارجية النمساوي بول إلى مأدبة عشاء تكريمية قبل أن يواصل الوفد رحلته باتجاه وارسو، وبعد مغادرة فيينا، وصل رضا بك ومرافقوه إلى منطقة تشاكو على الحدود الروسية النمساوية حيث استقبلهم موظف رسمي عُيّن خصيصًا لمرافقتهم، ومن هناك استقل الوفد عربة خاصة مرتبطة بالسكك الحديدية أُعدّت لاستعمال القيصر ليصلوا في اليوم التالي إلى وارسو، وفي وارسو استقبل الموظفون العثمانيون المعتمدون في المدينة أعضاء الوفد، وكان قد جرى تجهيز أفضل فندق في المدينة لإقامتهم مسبقًا، وبعد وقت قصير من وصولهم، أرسل حاكم بولندا الأمير غورشاكوف

(Lieven, 2002.s. 130-132) مبعوثًا من مكتب البروتوكولات يُدعى صوفانوس للاطمئنان على أحوال الوفد وتقديم التحية الرسمية لهم، ثم قام رضا بك وطاقمه بزيارة الأمير غورشاكوف، الذي قدّم لهم العديد من الضيافات، وفي مساء اليوم ذاته قام غورشاكوف بزيارة الفندق الذي يقيم فيه رضا بك موجّهًا دعوة رسمية إلى مأدبة عشاء في الليلة التالية، وخلال مأدبة العشاء جرى التأكيد على مشاعر حسن النية والصداقة بين الطرفين وبادرةً منه على الاحترام والتقدير، أمر غورشاكوف بتعيين جنود خاصين للحراسة عند مدخل الفندق الذي يقيم فيه الوفد العثماني، وعيّن الأمير العقيد رينتشيك (Рентчик) لمرافقة الوفد خلال جولاتهم في المدينة، وإلى جانب ذلك، خُصّصت للوفد عربتان من عربات القيصر وضعتا أمام الفندق طوال اليوم، واستعملتا في زيارة عدد من المصانع والمعالم المهمة في وارسو ، وبعد قضاء ليلتين في وارسو غادر الوفد العثماني المدينة يوم الاثنين بناءً على طلب الأمير غورشاكوف، وخلال المسير كان بعض الجنرالات الروس في استقبالهم في المحطات والمناطق التي مروا بها، حيث قُدمت لهم المآدب، وأُتيحت لهم الإقامة في قصور تابعة للقيصر، وبعد خمسة أيام من مغادرة وارسو وصل الوفد مساء يوم الجمعة إلى بطرسبرغ محطتهم الدبلوماسية النهائية (Başbakanlık, nr. 138/145-4) .

وبعد وصوله إلى بطرسبرغ وفي 31 آب سنة 1857م، استقبله القيصر، إذ قدّم رضا بك رسالة السلطان ثم ألقى كلمة بالمناسبة، استهلّ القيصر خطابه قائلًا(Başbakanlık, nr. 1387/145) **أشعر بالأسف لتأخري في استقبالك، إلا أنّ التسرّع لم يكن مناسبًا في ظل الظروف الراهنة والله يعلم أنّ نيّتي صادقة تجاه جلالة السلطان والمملكة العلية، وأنني أتمنى دائمًا تعزيز العلاقات الودية بين دولتينا، كما كان الحال في عهد السلطان محمود رحمه الله ، ثم تابع الإمبراطور قائلًا:كما هو الحال الآن، أتمنى أن تستمر صداقتنا، ولا يوجد دليل أعظم على محبتنا الحقيقية للدولة العلية من صداقتي مع والدي في قضية المصريين ولكن، أليس من غير اللائق أن يكون تصرف الدولة العلية في الأحداث الماضية قائمًا على نوع من الوصاية)).**

أما رضا بك الذي عدّ تلك العبارة الأخيرة تعبيرًا غريبًا ومنظورًا مجردًا يهدف إلى التأثير على مستقبل الدولة العلية من الناحية الدبلوماسية، فقد تَرك الموضوع دون رد مباشرةً مفضلًا مناقشته لاحقًا وجهًا لوجه مع وزير الخارجية الروسي غورشاكوف، في المقابل وفي إطار تعزيز العلاقات رد قائلًا (Başbakanlık, nr. 145/7634-1) : ((**نيابةً عن جلالة السلطان المعظم، فإن نوايا جلالتكم الحسنة تجاه هذا الموضوع، والتي عبرتم عنها في خطابكم الكريم، محل تقدير دائم من قبل كبار موظفينا، الذين يسعون باستمرار إلى تعزيز العلاقات الودية بين العرش السامي ودولتنا العظيمة ونحن على يقين بأن ما أعلناه سيصل إلى حضرتكم الإمبراطورية، مما سيؤدي إلى زيادة المحبة والتعاون بين دولتينا)).**

سرّ القيصر بتلك الإجابة ثم قدم رضا بك أعضاء بعثته الدبلوماسية المرافقة له بعد اللقاء، لم يتمكن رضا بك من حضور الحفل الذي أقيم في قصر بيتروف بسبب معاناته من مرض في العين على الرغم من رغبته في مقابلة أفراد عائلة القيصر، ومع ذلك التقى لاحقًا في إسطنبول بالأمير قسطنطين، شقيق القيصر في لقاء دار خارج نطاق السياسة، وعند مغادرة رضا بك إسطنبول تم تسليمه وسامين ليقدمهما إلى وزير الخارجية الروسي، الأمير غورشاكوف ومستشار الخارجية السيد تولستوي Толстой لكن بعد ذلك وبموجب تلغرافين واردين من إسطنبول طُلب منه عدم تسليم الوسام الخاص بتولستوي، وعندما استفسر رضا بك من الحكومة عن الأمر ولم يتلقَ إجابة ذكر أن تولستوي شخص مؤثر وموثوق به من بين كبار المسؤولين في الدولة الروسية ورأى أن من المناسب تكريمه.

وعند عرض القضية للمراجعة شعر المعنيون بالحاجة إلى توضيح بعض الجوانب، إذ تبيّن أن الوسام الممنوح لتولستوي من قبل الدول الأخرى كان من الدرجة الأولى، في حين أن الوسام الذي أرسلته الدولة العلية وصل عن طريق الخطأ من الدرجة الثانية، ولذلك رُئي أنه من المناسب تعديل الوسام وإعادة إرساله بدرجته الصحيحة، ومن جهة أخرى، يتضح من ترجمة رسالة الرد التي وجّهها وزير الخارجية الروسي الأمير غورشاكوف بتاريخ 1 أيلول 1857م إلى رشيد باشا وعلي غالب باشا اللذين كانا قد كتبا إليه في أثناء توجه رضا بك إلى روسيا بصفته سفيرًا أن غورشاكوف قد عبّر في رسالته عن شكره للتوصية المتعلقة بالسفير الجديد وللوسام المرسل إليه، وطلب إبلاغ جلالة السلطان ذلك، وبعد أن أعرب عن أسفه لانشغالاته التي حالت دون التواصل رسميًا مع السفير فور وصوله، أكّد سعيه لتعويض ذلك النقص وأوضح مدى أهمية العلاقات الثنائية بين الدولتين مشيرًا إلى أنّ أي جهد تبذله الدولة العلية لإرساء اتفاق وتوحيد بين جلالة السلطان والقيصر لن يظل بلا مقابل من الجانب الروسي(Başbakanlık, nr. 145/7611-1).

وفي سياق آخر، طلب رضا بك إذنًا من إسطنبول لإقامة وليمتين في السفارة وفي رسالته التي تناولت ذلك الشأن، وبعد أن شعر بضرورة توضيح الوليمة التي كان قد أقامها محمد باشا، أوضح استنادًا إلى سجلات السفارة أن تكلفة الوليمتين اللتين أقامهما محمد باشا بلغت 1616 روبل، وأن أكثر من نصف المدعوين اعتذروا عن الحضور، في حين لم يتجاوز عدد الحاضرين 20–25 شخصًا ، وبيّن رضا بك أنه في الوضع الراهن في بطرسبرغ يُدعى الروس بصفتهم ممثلين وموظفين ويبلغ عددهم 44 شخصًا إضافة إلى 38 من مرافقي السفراء الآخرين، ليصبح مجموع من يجب دعوتهم 82 شخصًا، وبعد دراسة التكاليف قدّر تكلفة الفرد الواحد بـ 30 روبل، إضافة إلى 200 روبل للخدم واللوازم ليصل مجموع المصروفات إلى 2660 روبل، وأبلغ إسطنبول بذلك رسميًا وعند عرض الموضوع، عُدّ مبلغ 2660 روبل كبيرًا للغاية، وطُلب الإذن بالموافقة على مبلغ 1500 روبل فقط بدلًا عنه، ومع ذلك لم يصدر رد واضح بشأن هذا الطلب(Başbakanlık, nr. 141/7394).

وفي إحدى رسائله السياسية في أثناء مدة عمله سفيرًا في بطرسبرغ أشار رضا بك إلى أن الدولة الروسية تهدف إلى تخفيف حالة الأسر التي كان يعيشها الشعب الروسي منذ زمن بعيد، وتمكينهم من العمل بحرية في أثناء السلم، ولكن بسبب الحرب سعت روسيا إلى إجراء بعض الإصلاحات الداخلية والعسكرية، ثم أشار إلى أن وزارة الخارجية الروسية تركز على التعامل الحسن جدًا مع دولة فرنسا، وأنها تعمل على الدولة عن التحالف مع إنجلترا كما كتب سابقًا لكنه أشار إلى أن اعتقال الأشخاص المتهمين بمحاولة اغتيال الامبراطور الفرنسي لويس نابليون، إضافة إلى احتمالية إصدار البرلمان البريطاني لقانون جديد يتعلق بالمهاجرين القتلة في إنجلترا سيؤدي على الأرجح إلى إحباط توقعات روسيا في إحداث خلاف بين الدولتين بل وأكد أن قبول البرلمان لذلك الاقتراح واحتلال الدولتين مدينة كانتون على الساحل الصيني معًا يدل على تأكيد الصداقة المتجددة بينهما(Başbakanlık, nr. 153/8118-2).

وفي رسالة سياسية أخرى، ذكر رضا بك أن السفير البافاري سأل عن موقفه من قرار لجنة نهر الدانوب التي أُنشئت في فيينا وفقًا لمعاهدة باريس، والذي يهدف إلى تسهيل التجارة في نهر الدانوب وضمان حرية تنقل السفن، وسؤال ما إذا كان سيوافق على المؤتمرات التي ستعقد في باريس لمتابعة ذلك القرار، ثم أشار إلى أن القائم بأعمال السفارة الفرنسية، ماركي دي سولوزار نبه إلى المراسلات التي جرت بين حكومتي النمسا وفرنسا بخصوص الموضوع، بل ذكر أن الدبلوماسي الفرنسي مستر تويل أرسل برقية إلى الحكومة الفرنسية في باريس تفيد بأن الدولة العلية ستُحيل مسألة نهر الدانوب إلى ذلك المؤتمر والقرار الجديد، وسأله ما إذا كان لديه علم بهذا الأمر لكنه أجاب بأنه ليس لديه معلومات في ذلك الخصوص بعد ذلك، خلال اجتماع مع السفير النمساوي كونت إسترهازي (Count Esterházy) أظهر الأخير رسالة رسمية من رئيس وزرائه بول لرضا بك مفادها عدم صحة هذا الأمر وأن المعلومات المرسلة إلى حكومة باريس(Başbakanlık, nr. 154/8155).

وقد كشف عن خطأ تلك المعلومات، فضلًا عن أن بعض الموظفين الروس أبدوا تعليقات من قبيل أن الأمر "مختلق" أو "مفتعل"، فعمد رضا بك إلى طلب تعليمات من إسطنبول لتوضيح الأمر ووفقًا للتعليمات الواردة، تم إبلاغ وزير الخارجية الروسي الأمير غورشاكوف بمضمون التعليمات مع عرض النص الأصلي عليه، وفي النهاية على الرغم من أن الأمير لم يتمكن من إقناع الدول الموقعة على بنود الاتفاقية المتعلقة بنهر الدانوب وهي إنجلترا وفرنسا والنمسا وبروسيا وسردينيا، إلا أنه في لقاء له مع السفير العثماني رضا بك صرح بأنه لا يوجد ما يمكن إضافته للدولة العلية بشأن عقد المؤتمرات المتعلقة بهذا الشأن، لكنه أعرب عن أمله في تحقيق نتائج جيدة عند بدء المفاوضات في تلك المؤتمرات، وعقب تلك التطورات أرسل رضا بك السكرتير الأول عارف أفندي إلى إسطنبول مرفقًا بعض الكتابات وخصص له مصاريف سفر ذهابًا وإيابًا بقيمة ٤٠٠٠ روبل (١٠٨٠٠٠ قرش) لكن بما أن المبلغ كان أعلى بكثير مقارنة بالمصاريف المشابهة،

تقرر دفع نصف المبلغ فقط ورفض الباقي بالإضافة إلى عدم الحاجة لعودة عارف أفندي إلى بطرسبرغ وتم تجميد راتبه حتى يتم تعيين سكرتير بديلًا له(Başbakanlık, nr. 158/8440)، لاحقًا قررت الدولة العلية على الأرجح في سبتمبر 1858م تحويل السفارتين في برلين وبطرسبرغ إلى بعثات مؤقتة، وذكر أن تحويل سفارة بطرسبرغ إلى بعثات سيؤدي إلى توفير كبير في النفقات واقترح تعيين هايدار أفندي القائم بأعمال باريس، بدلًا من رضا بك، وقد ودّع رضا بك القيصر الروسي في السادس من نوفمبر تشرين الثاني 1858م وغادر بطرسبرغ ثم عاد إلى إسطنبول في نهاية يناير أو بداية فبراير شباط 1859م حينما عاد رضا بك من بطرسبرغ وأهدى للسلطان درجًا، قام السلطان بدوره بمنحه صندوقًا قيمته 30000 قرشًا في تلك الأثناء، سلّم السفير الروسي لابانوف رضا بك وسام سانت ستانيسلاس من الدرجة الأولى، المرسل من قبل القيصر(Havadis, 1859, s. 1).

الخاتمة:

يُعدّ افتتاح السفارة العثمانية في روسيا عام 1856 خطوة مفصلية في تاريخ العلاقات العثمانية–الروسية، إذ جاء في مرحلة حساسة أعقبت حرب القرم وما ترتب عليها من إعادة تشكيل موازين القوى في أوروبا، وقد أدركت الدولة العثمانية آنذاك أهمية التحوّل من الدبلوماسية القائمة على الموفدين المؤقتين إلى دبلوماسية المقيم الدائم، بوصفها ضرورة لمواكبة النظام الدولي الحديث وحماية مصالحها في مواجهة النفوذ الروسي المتصاعد ، لقد مثّل تتويج القيصر ألكسندر الثاني فرصة سياسية ودبلوماسية مواتية لتفعيل هذه الخطوة، ليس فقط بوصفه حدثًا بروتوكوليًا، بل بعدّه لحظة تجديد في سياسة روسيا الخارجية، ونافذة لإعادة صياغة العلاقة بين الدولتين بعد سنوات من التوتر والصراع، وقد كان اختيار محمد باشا ليقود اللجنة الموفدة إلى موسكو بداية هذا التحوّل، غير أنّ التأسيس الفعلي للسفارة وتفعيل دورها كانا بحاجة إلى شخصية دبلوماسية تمتلك القدرة على التواصل وتقدير موازين القوة، وقراءة التوجّهات الروسية بدقة وهو ما تحقق في عهد يوسف رضا بك، فقد أدّى يوسف رضا بك دورًا محوريًا في ترسيخ حضور السفارة خلال مرحلتها الأولى؛ إذ نجح في تبديد التحفّظ الروسي الأولي تجاه إعادة تموضع العثمانيين في العاصمة الإمبراطورية، وأظهر براعة في مخاطبة القيصر وطبقة الحكم جامعًا بين اللياقة الدبلوماسية وفهم البنية السياسية الروسية، وأسهم في نقل معلومات دقيقة إلى إسطنبول حول الوضع الداخلي الروسي وتوجهات البلاط، الأمر الذي عزّز من قدرة الدولة العثمانية على رسم سياستها الخارجية بصورة أكثر واقعية.

إنّ تقليص النفقات سنة 1858 أدى إلى تحويل السفارة إلى وكالة دبلوماسية، فإنّ التجربة الأولى لفتح سفارة دائمة في بطرسبرغ شكّلت علامة فارقة في تطور الجهاز الدبلوماسي العثماني ورسّخت مبادئ الدبلوماسية الحديثة في سياستها الخارجية، وقد كان لجهود يوسف رضا بك أثر بالغ في تخطي العقبات الأولى، وفي تثبيت حضور الدولة العثمانية في مركز من مراكز التأثير السياسي في أوروبا، وهكذا يمكن القول إنّ افتتاح السفارة العثمانية في روسيا لم يكن مجرد خطوة بروتوكولية، بل كان بداية مرحلة جديدة في العلاقات بين الدولتين ولبنة أساسية في عملية تحديث الدبلوماسية العثمانية في القرن التاسع عشر.

قائمة المصادر والمراجع:

1. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1856). Hatt-ı Hümâyûn (HH, No. 12969).
2. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1856). İrade Hariciye (İ.HR. 133/6876-2).
3. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1856). İrade Hariciye (İ.HR. 136/7002-1).
4. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1856). İrade Hariciye (İ.HR. 137/7081-4).
5. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1856). İrade Hariciye (İ.HR. 137/7081-6).
6. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1856). İrade Hariciye (İ.HR. 137/7081-7).
7. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1856). İrade Hariciye (İ.HR. 137/7081-8).
8. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1856). İrade Hariciye (İ.HR. 137/7081-11).
9. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1856). İrade Hariciye (İ.HR. 138/7145-1).
10. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1856). İrade Hariciye (İ.HR. 138/7145-12).
11. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1856). İrade Hariciye (İ.HR. 138/7145-13).
12. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1857). İrade Hariciye (İ.HR. 141/7394).
13. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1857). İrade Hariciye (İ.HR. 145/7611-1).
14. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1857). İrade Hariciye (İ.HR. 145/7634-1).
15. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1858). İrade Hariciye (İ.HR. 153/8118-2).
16. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1858). İrade Hariciye (İ.HR. 154/8155).
17. Başbakanlık Osmanlı Arşivi. (1858). İrade Hariciye (İ.HR. 158/8440).
18. Danişmend, İ. H. (1971). İzahlı Osmanlı tarihi kronolojisi (Cilt 5). İstanbul.
19. Girgin, K. (1994). Osmanlı ve Cumhuriyet dönemleri hariciye tarihimiz: Teşkilat ve protokol. Ankara.
20. İnal, M. K. (1982). Son sadrazamlar (Cilt 1). İstanbul.
21. Kuneralp, S. (1999). Son dönem Osmanlı erkân ve ricali (1839–1922). İstanbul.
22. Süreyya, M. (t.y.). Sicill-i Osmânî (Cilt 4). İstanbul.
23. Tuncer, H. (1991). Eski ve yeni diplomasi. Ankara.
24. Türkgeldi, A. F. (1987). Mesâil-i mühimme-i siyasiyye (Haz. B. S. Baykal, Cilt 1). Ankara.
25. Unat, F. R. (1992). Osmanlı sefirleri ve sefaretnameleri. Ankara.
26. Lincoln, W. B. (1990). The great reforms: Autocracy, bureaucracy, and the politics of change in imperial Russia. Northern Illinois University Press.
27. Lieven, D. (2002). Empire: The Russian Empire and its rivals. Yale University Press.
28. Saner-Gönen, Y. (1993). III. Selim döneminde Rusya'da ikâmet elçiliği açma niyeti. Tarih ve Toplum, 19(111), 135–136.
29. Beydilli, K. (2009). Serasker. Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Ansiklopedisi (Cilt 36, ss. 285–288). İstanbul: TDV Yayınları.
30. Beydilli, K. (2009). Sefâretnâme. Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Ansiklopedisi (Cilt 36, ss. 288–294). İstanbul: TDV Yayınları.
31. İpşirli, M. (1995). Elçi. Türkiye Diyanet Vakfı İslâm Ansiklopedisi (Cilt 11, ss. 3–15). İstanbul: TDV Yayınları.
32. İslam Araştırmaları Merkezi. (2009). Kâtip. İslâm Ansiklopedisi (Cilt 37, ss. 116–118). İstanbul.